القهر الاجتماعي والثورة دراسة اجتماعية تحليلية في الثورات الشعبية (لعبيد روما وزنج البصرة والربيع العربي)

Social Compulsion and Revolution An Analytical Social Study of Revolutions (Slaves of Rome, Zenj Slaves of Basra and the Arab Spring)

Dr. Mohammed thanunzeno Al-Saigh د.محمد ذنون زينو الصائغ

قسم علم الاجتماع كلية الآداب - جامعة الموصل

Instructor in the Department of Sociology College of Arts – University of Mosul

mohammed.th.z@uomosul.edu.iq

المستخلص:

يتميز الإنسان المقهور المقموع بشعوره الدائم بقلقه من عيشه ومن مستقبله في بيئة يسودها العنف ويطغى ويفرض عليه. ويتأتى القهر والاستبداد من الطبيعة بكوارثها وآفاتها وأمراضها ، ومن البيئة الاجتماعية الإنسانية بما تشكله من قيم وأعراف وتقاليد تحدد مسير الإنسان والمجتمع وتتحكم بمصيره. ويتأتى القهر والكبت والضغط الأقسى على الإنسان والمجتمع في أحايين عديدة من بيئته في شطرها الاجتماعي المتمثل بالدين وقيمه والسلطة السياسية والواقع السياسي الفاسد ، فضلا عن الاقتصادي المتمثل بالفقر. وأي خرق في السلوك من قبل هذا الإنسان في محاولته فك قيود وإسار هذه الضغوطات والتحرر ولو بالاحتجاج البسيط أو المعارضة تؤدي به لمخاطر جسيمه تهدد أمنه وأمن أسرته وتصل إلى حد تصفيته جسديا. حوادث التاريخ الثورية ، أن الظلم والقهر والاستبداد والتسلط هي الأسباب والدوافع الرئيسة لحدوث الثورات . ولا يحتاج حدوث ثورة المظلومين والمقهورين سوى إلى شرارة أو قائد يستثمر مظلومية هؤلاء المستعبدين .وهكذا اخترنا ثلاث ثورات من ثورات الجياع المقهورين شهدها التاريخ الإنساني ، هي ثورة عبيد روما (٧٣ – ٧١ ق م) وثورة زنج البصرة (٢٥٥-٢٧٠ هـ / ٨٦٩ – ٨٨٣ م) وثورة الربيع العربي (٢٠١٠ – ٢٠١٥ م) . لبيان أثر القهر والظلم الاجتماعي في دفع الإنسان نحو الثورة والتضحية بحياته في سبيل الخلاص والتغيير .هذا الإنسان لم يعد أمامه أي خيار وليس لديه ما يخسره .

الكلمات المفتاحية : قهر ، ثورة ، عبيد.

Abstract

The suppressed individuals constantly experience anxiety about their life and future in an environment dominated by violence that is imposed upon them. Suppression and tyranny arise from nature with its disasters, plagues, and diseases, as well as from the human social environment that was shaped by the values, norms, and traditions that dictate the paths of individuals and societies and control their fate. The toughest forms of oppression, repression, and pressure on the individuals often emerge from the social aspect of the environment, which is represented by religion and its values, political authority, and the corrupt political situation in addition to the situation represented by poverty. Any infringement in the behavior made by the individual as he attempts to break the chains of these pressures seeking liberation—even through simple protest or opposition—can expose this individual to serious dangers that threaten his safety and the security of his family and perhaps lead to eliminating him physically. Historical revolutionary events show that injustice, suppression, despotism, and authoritarian tendencies are the main causes and motifs for the outbreak of revolutions. The uprising of the suppressed and aggrieved people requires nothing but a spark or a leader who can utilize the grievances of these enslaved individuals. Thus, this research selected three revolutions from human history that were led by starving and suppressed individuals, namely, the Slaves' Revolt in Rome (73–71 BC), the Zenj Rebellion in Basra (255-270 AH / 869-883 AD) and the Arab Spring revolution (2010-2015), and this was investigated to illustrate the effect of social suppression and injustice on pushing the individuals to revolt and motivating them to sacrifice their lives for the purpose of salvation and change. These individuals find themselves with no options left and with nothing to lose.

Keywords: suppression, revolution, slaves.

مقدمة:

لعل أهم ما يميز الإنسان المقهور المقموع هو شعوره الدائم بالقلق من عيشه ومن مستقبله، في عالم يسود فيه العنف ويطغى ويُفرَض، وقد يتأتى القهر والاستبداد من مصادر متعددة كالطبيعة بكوارثها وآفاتها وأمراضها، أو من البيئة الاجتماعية الإنسانية بما تشكله من قيم وأعراف وتقاليد تحدد مسير المجتمع وأفراده وتتحكم بمصائرهم، ويتأتى القهر والكبت والضغط الأكبر والأصعب على الإنسان في أحايين عديدة من بيئته في شطرها الاجتماعي المتمثل بالدين وقيمه والسلطة السياسية والواقع السياسي الفاسد. فضلًا عن الاقتصادي، وأي خرق في السلوك من قبل هذا الإنسان في محاولته فك قيود وإسار هذه الضغوطات والتحرر بالاحتجاج والمعارضة والثورة والتمرد، قد يعرضه لمخاطر جسيمة تهدد أمنه وأمن أسرته وتصل إلى حد تصفيته جسديًا. مما يجعل الإنسان المقهور أمام خيار واحد فقط هو الخضوع والتبعية في علاقته مع المحيط والبيئة الاجتماعية المتسلطة،

كونه الأنجع لاتقاء الأذى والسلامة، ثم تتحور تلك العلاقة وتتطور إلى التفنن في سلوكيات التزلف والمداهنة وتعظيم شخوص السلطة ورموزها، اتقاءً للشر وطمعًا في الرضا والمكاسب. وتستمر الطبقة السياسية المتسلطة على المجتمع بالنظر إلى الإنسان المقهور باستهزاء واستخفاف ودونية، وترى نفسها على الضد من ذلك في جعلها تتمادى في غيها، وهنا يحصل الانفصال التام بين الحاكم والمحكومين وتفقد السلطة معظم شرعيتها، فيصبح الخروج على الحاكم بالاحتجاج والتمرد واجبا وضرورة. فتحدث الثورة نتيجة مقدمات وشروط تبرز في إطار تطور المجتمع تؤدي إلى حدوث تناقضات أساسية بين الطابع الاجتماعي للإنتاج وشكل التملك الخاص مما يؤدي إلى اتساع الهوة والشعور بالظلم والاستغلال الذي يمارس من قبل فئة وطبقة متسلطة ومالكة. هذه التناقضات تؤدي بالمحصلة إلى أزمة عميقة تحمل معها مظاهر نشوء حالة ثورية تتجسد بنشاط الجماهير المهمشة المقموعة السياسي الواسع، بوساطة التمرد على الواقع بأشكال ومظاهر متعددة كالمظاهرات والاحتجاجات والاعتصامات والعصيان والكفاح المسلح، فالحالة الثورية هي تعبير عن التناقضات الموجودة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمجتمع وهي تمثل ذروة تفاقمها.لقد أثبتت حوادث التاريخ الثورية في كافة مراحلها أن الظلم والقهر والاستبداد هي أحد أهم الأسباب لحصول الثورة. وتتعدد شواهد التاريخ على ذلك لكننا ارتأينا أن نختار ثلاث ثورات شهدها التاريخ الإنساني هي ثورة عبيد روما (٧٣-٧١ ق.م)، وثورة زنج البصرة (٢٥٥-٢٧٠ هـ/٨٦٩-٨٨٣ م)، وثورة الربيع العربي (٢٠١٠-٢٠١٥ م)، لتوضيح أثر القهر والظلم.

المطلب الأول

تعريف القهر الاجتماعي والثورة

أ- القهر:

يُعرف بأنه الغلبة والأخذ من فوق وبدون رضا الإنسان الآخر. وحينئذٍ فالإنسان المقهور هو ذلك المغلوب على أمره الذي تعرض لفرض السطوة عليه من المتسلط عنوة(بادفيش، ٢٠٢١). وقَهَرَ، انتصر على. كَسَرَ. غَلَبَ. هَزَمَ. ظفر على. قهر العدو. وغُلب: أُجبر على الخضوع والرضوخ. أُخضع. قهر شخصًا. والقهر كمصطلح هو الغلبة. ومنه الأخذ قهرًا أي مغالبة بغير رضاه. قَهر الشخص: احتقره. تسلط عليه بالظلم. أخذهم قهرًا من غير رضاهم. أخرجه قهرًا. جبرًا واضطرارًا. قاهرهُ في عقر داره. غالبه. أقهر الرجل: صار أمره إلى القهر. قُهر يُقهر قَهرًا. وقهرهُ أي غَلبه(ضيف، ٢٠٠٤).ويتخذ القهر الاجتماعي أشكالًا متعددة فهناك القهر عبر الحرمان. وهناك القهر عبر التهميش. وهناك القهر عبر نشر الخرافات(صديق، ٢٠٢١). وكلها مجالات للقهر الاجتماعي تنبني على بعضها الآخر. لكنها في النهاية في محصلة واحدة وإن تباين مستواها وهي إخضاع الآخر للسلطة بأداتين مترابطتين هما: سمو قدر المتسلط، وانحطاط شأن المقهور. ولكي تستمر علاقة القمع بين المتسلط والمقهور تحتاج هذه العلاقة إلى ما يغذي نرجسية السيد حتى تتلاشى احتمالية التكافؤ بينه وبين مَن يقهره، فيزيد من العنف والتعسف، وتتفاقم وتتزايد نظرة المتسلط للمستضعف دونية واحتقارا (حجازي، ٢٠٠٥).ويعد الظلم الاجتماعي من أبرز مظاهر ومرتكزات القهر الاجتماعي. وهو يعني انعدام التوازن الاجتماعي بما يؤدي إلى نشوء الطبقية في المجتمع. تلك الطبقية التي ترمز إلى استعباد الأغنياء للفقراء وسيطرة أصحاب النفوذ على مَن لا نفوذ لهم. والتباهي بالمال والجاه والقبيلة والعرق(اليوسف، ٢٠١١).

ب- الثورة:

من ثار الشيء هاج، ثورة الغضب حدته. والتأثر الغضبان. ويقال للغضبان أصبح أهيج ما يكون. وقد ثار ثائره وفار فائره إذا غضب وهاج غضبه. وثار إليه وثب(ضيف، ٢٠٠٤). وتعرف الثورة بأنها ذلك الجهد الموحد والمتصل الذي يقوم به مجموعة من الأفراد لتحقيق هدف أو مجموعة من الأهداف المشتركة بين

أعضائها، وقد يكون معناها أكثر تحديدًا ليدل على الجهد الذي يتجه نحو تعديل أو إبدال أو هدم نظام اجتماعي قائم(السويدي، ٢٠١٦). وفي كتابه "العقل والثورة" أشار الفيلسوف هيجل (١٧٧٠-١٨٣١ م) في تعريفه للثورة بأنها حركة تتسم برفض وإنكار ما هو قائم فعلًا، وإنها إعادة لتنظيم العلاقة بين الدولة والمجتمع على أساس عقلاني(ماركيوز، ١٩٧٠).

ج- أسباب الثورة

تتعدد أسباب الثورة فهي إبراز لواقع اجتماعي يختلف من مجتمع إلى آخر، لذلك لا يمكن الجزم بأسباب محددة بذاتها تتوفر في كل الثورات، لأن كل ثورة هي وليدة سياق معين، لذا تتعدد الأسباب بتعدد الظروف، ومنذ القدم شغلت الثورة الفلاسفة والمفكرين وبحثوا عن أبرز عوامل وأسباب قيامها. فنجد الفيلسوف أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م). يعتقد بأن أسباب قيام الثورة تعود إلى عدم الرضا عن الوضع القائم. وقد اعتبر هذه العلة هي السبب الأهم الذي يُهيئ النفوس للثورة.أما لينين (١٨٧٠-١٩٢٤ م) ومن بعده دعاة نظرية التخلف فأكدوا على أن التخلف عامل مهم ودافع حاسم للتغيير وحينئذٍ تصبح الثورة حتمية. إذ إن القهر والسخط المتأجج في النفوس يمكن أن يخلق مشاعر ثورية. ويعود سبب هذا التخلف إلى الفقر وسيطرة طبقة اجتماعية أوليجاركية (حكم الأقلية) على معظم مصادر الدخل والرفاهية في المجتمع وإهمال وإغفال حاجات غالبية الشعب. وحينئذٍ تُصبح الظروف مناسبة وتهيؤ المزاج العام الاجتماعي لنمو السخط والشقاق الاجتماعي والذي غالبًا ما يواجه من قبل النظام القائم بالسلطة بالقمع. الأمر الذي يؤدي إلى ازدياد السخط بين الثوار، وما يميز غالبًا حكم هذه الأوليجاركية اعتمادها على الأجهزة البوليسية القمعية لقمع المطالبات بالتغيير. لكن هذه الطبقة تهتز وتتخلخل بفعل الثورات الشعبية الناتجة عن عدم المساواة في التوزيع للثروات(السويدي، ٢٠١٦).

المطلب الثاني

الرق والعبودية في الحضارات

تمهيد:

نشأت ظاهرة الرق (الاستعباد) في تاريخ البشرية خلال فترة التحول من الصيد إلى الزراعة، ففي فترة الصيد وجمع الغذاء لم يكن هناك وجود للاسترقاق، ولكن عندما انتقل الإنسان من الصيد إلى الزراعة، بدأ ظهور الرق بسبب استقرار الإنسان وتشكل الحياة القروية التي تتطلب أيدي عاملة في الزراعة والصناعة ورعي المواشي واستصلاح الأراضي. وظل وضع الرقيق تركيبًا اجتماعيًا قائمًا على وجود سيد قوي وعبد مستضعف يعمل من أجل سيده منذ العصور القديمة مما جعل فكرة الاسترقاق تتغلغل إلى نفوس أرقى الناس والمفكرين والفلاسفة أمثال أفلاطون وأرسطو، وكلما تقادم نظام الرق ازداد الناس ألفة وتقبلًا له حتى أصبح من واقع حياتهم (حمدان، ٢٠١٢).وعُرف الرق كمظهر من مظاهر الحياة البشرية منذ أقدم العصور وظل قائمًا معترفًا به اجتماعيًا وقانونيًا في معظم المجتمعات الإنسانية القديمة والوسيطة بل وحتى الحديثة أيضًا. ومما لا شك فيه أن الحروب كانت أحد الأسباب الرئيسة في قيام نظام الرق والعبودية وترسيخه في ثقافات المجتمعات في العصور القديمة. فقد كان المنتصر القوي يلزم المهزوم الضعيف بالعمل لمصلحته ولحسابه، لاسيما الأسرى ينتفع بهم في خدمته. وأخذ الرق يكتسب طابعه الاجتماعي المشروع والمعروف كلما تعددت الحروب واشتدت واتسع نطاقها، وكثر عدد الأسرى. وهكذا نجد نظام الاسترقاق في روما ومصر القديمة ووادي الرافدين وفي الهند، وكذلك الصين وفارس وبلاد العبرانيين، حيث اعتبره أنبياء بني إسرائيل من وسائل الثروة والغنى(السامر، ١٩٧١).

أولًا: الرق والعبودية عند الرومان

يعود وجود العبيد في روما إلى الفترة الأتروسكية (١٢٠٠-١٠٠ ق.م) حيث كان العبيد يعملون كخدم في بيوت وقصور أسيادهم أو في المناجم أو فلاحين في الريف، فالرسوم الجنائزية المكتشفة في أغلب القبور الأتروسكية تصور العديد من هؤلاء العبيد من نساء ورجال في أوضاع مختلفة يقومون بخدمة أسيادهم في البيوت والقصور والمناجم والمزارع ورعي الحيوانات(حمدان، ٢٠١٢).وتعددت مصادر العبيد في روما فكانت من أسرى الحروب والاسترقاق بسبب الدين. وابن العبد يتحول إلى عبد. فضلًا عن السلطة والحق المطلق على أملاك العائلة وأفرادها وتعني في روما الحق لرب العائلة أن يبيع أولاده كعبيد لمدى الحياة أو فترة محدودة. كما أن عدم الاعتراف بالمولود يحوله إلى عبد(هاردنج، ١٩٨١). وكان توسع روما وقيامها بالفتوحات شرقًا وغربًا قد ملأ إيطاليا بأفواج هائلة من العبيد الأسرى الذين استخدموا في الزراعة. وحين توقف التوسع الروماني ولم تعد الحروب موردًا للحصول على أدوات الإنتاج بدأ النخاسون والقراصنة يتصيدون البشر في بحر إيجة وفي حوض البحر الأبيض المتوسط ويحولونهم إلى عبيد(السامر، ١٩٧١).

إن الرق كظاهرة اجتماعية يعني قيام إنسان قوي باستغلال إنسان ضعيف بدلًا من قتله، وهو المبدأ الذي استمد منه استرقاق أسرى الحروب، فاعتبر أن الحفاظ على حياة الأسير ونجاته من ناحية أخلاقية تقدمًا عظيمًا، فالعيش في أدنى مراتب الحياة وأسوأ الظروف المعيشية أهون من القتل(الترمانيني، ١٩٧٩).وكان عمل العبيد في روما بالزراعة شاقًا، أما العبيد الذين يعملون في العاصمة وغيرها من المدن فكان وضعهم أفضل وأقل شقاءً. أما الذين سيقوا للأرياف فقد عملوا بالرعي والزراعة وهي أعمال شاقة(لانجيله، ١٩٩٤). وكانت حياتهم أشبه بحياة البهائم فكانوا يُكوون بمياسم محماة بالنار فيبقى الوسم علامة أبدية يعرفون من خلالها. وكان ساداتهم يضعونهم ليلًا في ثكنات وفي النهار يساقون إلى الحقول كالدواب ليعملوا فيها(الحوبري، ١٩٨١). وكان العبد يسلم كنزة لعام كامل ومعطف قصير لسنتين. أما ثيابهم الرثة فيصنعون منها أغطيتهم. كما يسلم العبد قبقابًا خشبيًا واحدًا لمدة عامين. وكان أغلب العبيد مضطرين لسرقة طعامهم وثيابهم(وس.كوفاليف و ف.دياكوف، ١٩٥٩). أما العبيد الذين كانوا يعملون في المناجم والمقالع وفي الصناعة فيقول ديودوروس (٩٠-٣٠ ق.م) عنهم أنهم لا يرتاحون ويعملون طوال اليوم تحت الضرب المبرح حتى يقع العبد على الأرض من شدة الإنهاك. وكان الضرب يتم بقبضات اليد على الوجه مباشرة. وكثيرًا ما كان الضرب يؤدي إلى قلع أسنان أو عين العبد. وأحيانًا يضرب بالعصي والسياط. أما العبد الذي يسرق فكانوا يحرقون يديه بالحديد المحمي بالنار. وأما الذين يهربون وغير المطيعين فكانوا يقيدون بالسلاسل ويصلب البعض منهم. وكانوا يعاقبون أيضًا بالأعمال الشاقة كتدوير حجر الرحى وفي مقالع الصخور(وس.كوفاليف و ف.دياكوف، ١٩٥٩). وكان العبيد في روما لاسيما في الأرياف يعملون وهم جائعين. فقد كان طعامهم الشهري يتراوح ما بين ٢٥-٣٠ كغم من الحنطة الرومانية التي يدقونها في جرن ويصنعون منها الخبز. كما كانوا يعطوهم نصف لتر من زيت الزيتون شهريًا، والقليل من عصير العنب الحامض المخفف كثيرًا بالماء(رستم، ١٩٩١). لقد كان العبيد عند الرومان يعاملون بشكل سيء لاسيما الذين يعملون في المزارع والمناجم والطواحين، وكان هناك اختلاف في الظروف المعاشية بين عبيد المدن لدى أغنياء الرومان، والعبيد العاملين في الريف في الزراعة والرعي، وبين الطباخين والحجاب(هاردنج، ١٩٨١).وطالب ماركوس بورسيوسكاتون (٢٣٤-١٤٩ ق.م)، بتشغيل العبيد في الحقول حتى الموت، وابتياع بدل العبد المتوفي عبد آخر وهو أمر أرخص كثيرًا من العطف على العبد(رستم، ١٩٩١). وفي عام (١٦٠ ق.م) طلب كاتون زيادة الأعباء على العبيد دون مراعاة للوقت ولا منحهم يوم عطلة، وإلغاء العطلة التي كانوا يتمتعون بها ليومين فقط خلال العام. وفيها يتحرر العبيد مرتان من العمل في العام(رستم، ١٩٩١).أما بالنسبة لروح القانون الروماني فالرق شبيه بالحيوان وله نفس المصير ولا يحق له الملكية وليس لديه عائلة، وهو مملوك لغيره يتصرف به سيده كيفما يشاء كما يتصرف المالك بملكه، فمن حق سيده أن يستخدمه في أي عمل، وأن يؤجره ويرهنه ويبيعه ويهبه لمن يشاء، وأن يضربه أو يقتله أو يُمثّل به. فالرق عند الرومان من الناحية الاجتماعية هو استغلال الإنسان القوي للإنسان الضعيف، ونظام الرق عندهم يقوم أساسًا على العمل والإنتاج(الشامي، ٢٠٠٩). لقد أعطى القانون الروماني مالك العبد سلطة غير محدودة لاسيما حق تقرير مصيره (الموت أو الحياة)(هاردنج، ١٩٨١).

وبسبب هذه المعاملة السيئة والظلم والقهر الاجتماعي التي كان العبيد يلاقونها قامت العديد من ثورات العبيد في أنحاء مختلفة من روما.

ثانيًا: ثورة عبيد روما (٧٣-٧١ ق.م)

حدثت العديد من ثورات عبيد روما طلبًا للحرية الاجتماعية مع بداية القرن الثاني قبل الميلاد. فاتخذت حركة الرقيق طابع التمردات المحلية. حيث اشترك فيها أُلوف العبيد ولكن في أفق إقليمي محدود. وحدث التمرد الأول عام (١٩٨ ق.م) في المستعمرة الرومانية سيتيا في اللاكيوم. هذه المستعمرة كانت مركزًا للأسرى القرطاجيين وكان ساداتهم يضعونهم ليلًا في ثكنات وفي النهار يسقونهم إلى الحقول كالدواب ليعملوا فيها(براستد، ١٩٨٣). فكانت حياتهم بائسة ففكروا بالثورة والتمرد ضد أسيادهم. لكن محاولتهم فشلت لأن بعض الخونة من بينهم وشوا بهم إلى سلطات العاصمة وتم التنكيل بالكثير منهم. وحصلت في عام (١٩٦ ق.م) في أتروريا انتفاضة أخرى ضخمة كان سببها تسلط أحد الملوك الكبار في ريفها واضطهاده للعبيد الذين يعملون عنده. هذا الظلم والقهر الاجتماعي ولّد لديهم شعورًا بالحقد عليه. إذ نجحوا في تشكيل جيش حقيقي. إلّا أن القادة الرومان نجحوا في هزيمتهم في معركة نظامية قتل فيها أغلب العبيد وصلب قادتهم وأعيد البعض منهم إلى سادتهم وآخرون سجنوا(وس.كوفاليف و ف.دياكوف، ١٩٥٩).وفي العام (١٨٥ ق.م) انتفض رعاة أبوليا وقاموا بمهاجمة المراعي وقطع الطرق العامة لكن الحاكم الروماني يوستوميوس نجح في القضاء على انتفاضتهم وأعدم منهم سبعة آلاف عبد متمرد وهرب البعض منهم والباقي عُذبوا بقسوة ووحشية.وأثّرت عصيانات العبيد وتمرداتهم في بداية القرن الثاني قبل الميلاد على أقاليم عديدة. لكنها فيما بعد أصبحت أكثر جرأة وتلازمًا مع احتفاظها بالطابع المحلي(وس.كوفاليف و ف.دياكوف، ١٩٥٩).ونشبت في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد تمردات وثورات شملت ولايات بكاملها في سيسيليا وأتاكيا وإقليم آسيا(الغني، ٢٠٠٥). لكن روما قمعت بقسوة هذه الثورات والتمردات جميعها. ومع ازدياد عديد العبيد باطراد واستمرار أوضاعهم السيئة على ما هي عليه لاسيما العاملين منهم في الزراعة، نشبت من جديد الثورات في صقلية من قبل العبيد الذين يعملون بالزراعة والرعي فالعبيد الرعاة كانوا أخطر فئة من فئات العبيد لأن طبيعة عملهم كانت تقتضي إعطائهم حرية التنقل من مكان لآخر. مما كان يجعل الرقابة عليهم أكثر صعوبة منها على غيرهم لذا كانت لديهم أفضل الفرص لتدبير الثورات. ولأنهم يعيشون في ظروف بائسة جميعهم فلم يكن لهم أمل في الخلاص سوى بالثورة. ولكن كان ينقص هذه الثورات زعيم وقائد يجمعهم ويوحدهم ويقودهم من خلال توحيد صفوفهم في جيش(حمدان، ٢٠١٢). وهو ما حدث بثورة العبيد بقيادة سبارتكوس[*] (٧٣-٧١ ق.م) فبينما كانت المخاطر تهدد روما في شرق وغرب البحر الأبيض المتوسط(نصحي، د. ت)، اندلعت ثورة عاتية قادها العبيد المصارعون من داخل روما نفسها(نصحي، د. ت)، بسبب الأوضاع السيئة التي كانوا يعيشونها وتدريبهم القاسي ومصيرهم المؤكد وهو الهلاك عاجلًا أو آجلًا(مصطفى، ٢٠٠٤). فقد كانوا يدربون على التصارع في حلبة تسمى المجلد، فرشت أرضها بالرمال وتستخدم ليقاتل هؤلاء المجالدون بعضهم البعض الآخر حتى الموت في جو حماسي من قبل الجماهير وتصفيقهم لهذا العمل الوحشي(سلامة، ١٩٥٩). ففي عام (٧٣ ق.م) انتفض حوالي سبعين من مصارعي مدرسة كابوا ثائرين بزعامة مصارع يدعى سبارتكوس، ولم يكد هؤلاء الثوار يعتصمون في جبل فيزوف، حتى انضم إليهم عدد كبير من العبيد التراقيين والسلت والجرمان الذين ضاقوا ذرعًا بحياتهم في الزراعة وفي الضِياع التي كانوا يعملون بها. ونجح هؤلاء في القضاء على حملتين أرسلتهما روما مما أدى إلى اتساع نطاق نشاطهم وازدياد عديد الذين انضموا إليهم حيث وصل في نهاية عام (٧٣ ق.م) إلى ما يقرب من سبعين ألف ثائر مسلح(باحثين، ٢٠٢٣). وكان سبارتكوس أعقل من أن يتصور أنه بإمكان مجموعات من العبيد الاحتفاظ طويلًا بسيطرتها على

(*) سبارتكوس (١٠٩-٧١ ق.م) ولد في تراقيه في شبه جزيرة القرم، ويقال أنه كان عسكريًا أو (مرتزقًا) في الجيش الروماني. وأنه هرب وألقي القبض عليه وبيع كعبد وحمل إلى مدرسة المقاتلين (الغلادياتور) المشهورة في كابوا شمال نابولي في إيطاليا.

جنوب إيطاليا(مصطفى، ٢٠٠٤). لذا فكّر أنه من الأفضل ومن الحكمة التوجه شمالًا نحو جبال الألب، ثم يعود كل ثائر إلى وطنه الأم(كفاليف، ١٩٨٦). إلا أن (فريكسوس) وأتباعه من الغال وكذلك الجرمان عارضوا هذا الرأي مفضلين البقاء في إيطاليا لينعموا بما كانوا يحصلون عليه من جراء أعمال السلب والسطو والنهب. مما أرغم سبارتكوس على العدول عن فكرته مؤقتًا.وفي عام (٧٢ ق.م) تولى القنصلان (لوقيوسجليوسوجنايوسقورنليوس) قضية قمع تمرد العبيد وإخماد ثورتهم. لكن سبارتكوس أنزل بالقنصلين الهزيمة تلو الأخرى وشق طريقه نحو الشمال حيث هزم عند موتيناء جايوسقاسيوس قنصل غاليا في منطقة الألب(حمدان ع.، ٢٠١٢). ومع أن الطريق أصبح مفتوحًا أمام العبيد تجاه روما إلّا أنهم لم يفعلوا ذلك وعادوا أدراجهم جنوبًا قاصدين صقلية(نصحي، د. ت).ويبدو أن الانتصارات التي حققها العبيد ساعدتهم وشجعتهم على إقناع سبارتكوس بالذهاب إلى صقلية حيث يتواجد آلاف من العبيد المتذمرين الذين كانوا على أتم الاستعداد للانضمام إلى الثوار وبذلك يتحرر هؤلاء العبيد، ويضاف للثوار قوة عددية وموارد كافية تمكنهم من الاحتفاظ بصقلية والتمتع بخيراتها(دونالد، ١٩٧٧).وبعد العديد من المعارك التي انتصر فيها العبيد استطاع البرايتور (مارقوسليقينيوسكراسوس ١١٥-٥٣ ق.م) من القضاء على ثورة العبيد بقيادة سبارتكوس، بمساندة ودعم من الجيش الروماني الذي كان عائدًا من إسبانيا بقيادة بومبي (١٠٦-٤٦ ق.م) وانتهت ثورة العبيد التي استمرت من عام (٧٣ ق.م) إلى عام (٧١ ق.م) وأطلق بعض المؤرخون عليها اسم حرب العبيد الثالثة.

ثالثًا: نتائج ثورة العبيد

١- تعد حرب العبيد الثالثة الحرب الوحيدة في سلسلة الحروب أو الثورات التي هددت الإمبراطورية الرومانية بشكل مباشر وخطير حيث كاد الثوار أن يصلوا إلى روما. ويرى أصحاب النظرية الاقتصادية حول سقوط روما، أن اضطهاد وظلم العبيد هو من أهم الأسباب التي أدت إلى ثوراتهم، ومن ثم إلى سقوط روما.
٢- كانت حرب العبيد الثالثة نهاية لفترة ذروة استخدام العبيد في روما وبداية عهد ومفهوم جديد للعبد في المجتمع والقانون الروماني. فلم تشهد روما من بعدها أي انتفاضة أو ثورة للعبيد بهذه الخطورة.
٣- قلّص مُلّاك الأراضي الأثرياء من عديد العبيد المزارعين، لفتح الفرصة أمام الأحرار المحرومين من العمل في الزراعة، فمع انتهاء حكم أغسطس توقفت حروب الرومان التوسعية، وصولًا إلى حكم الامبراطور تراجان الذي حكم ما بين الأعوام (٩٨-١١٧ ق.م)، وتوقفت امدادات العبيد المكلفين من الذين حصل عليهم الرومان سابقًا عن طريق الغزو وشجعت فترة السلام هذه على استخدام الأحرار للعمل في الزراعة.
٤- تغيرت العديد من القوانين فضلًا عن حقوق العبيد. ففي فترة حكم كلوديوس (٤١-٤٥ م) صدر قانون تجريم قتل العبيد العجائز، وإن تخلى السيد على عبده يصبح حرًا. وفي فترة حكم انطونيوس بيوس (١٣٨-١٦١ م) مُنح العبيد المزيد من الحقوق. وحُمل السيد مسؤولية جنائية عن قتله للعبد. واجبر السيد على بيع عبده إذا ثبتت إساءة السيد المالك لعبده. كما وفّر القانون الروماني طرفًا ثالثًا محايدًا بإمكان العبد للجوء إليه للاستئناف(حمدان د.، ٢٠١٢).

المطلب الثالث

الرق والعبودية في الإسلام

الرق كما عرّفه الفقهاء المسلمين "هو عجز حكمي يصيب من يقع أسيرًا في حرب مشروعة". وبهذا يختلف الرق في الشريعة الإسلامية في مصدره ومفهومه عن بقية القوانين والشرائع السماوية والثقافات الأخرى. فمصدره في الدين الإسلامي حرب مشروعة وهي قتال من يحارب المسلمين بعد أن تبلغ دعوتهم للإسلام. وهو في تبسيط مفهومه عجز حكمي يصيب من يقع أسيرًا في هذه الحرب فيفقد أهليته القانونية. ويكون مملوكًا لمن

أفقده هذه الأهلية وغلبه. وهذا العجز وفقدان الأهلية يزول بالفداء أو العتق. وبذلك جعل الإسلام للرق مصدرًا وحيدًا أقام شرعيته على حرب وقتال من يعترض الدعوة للإسلام أو مقاومتها. وألغى ما سواه من المصادر الأخرى، فضيّق بذلك المداخل إلى الاسترقاق. ثم حض على العتق ويَسَّرَ أسبابه فأوسع بذلك باب الخروج من الرق. كما أوصت الشريعة الإسلامية بأن يعامل الرقيق في مدة العجز الحكمي معاملة حسنة تحفظ له إنسانيته وكرامته. وأن يبقى بعد تحريره مرتبطًا برابط الولاء لسيده وأن يعينه ويحميه. فالإسلام لم يشرعن الرق كما شرّعته الأمم والثقافات الأخرى فجعلته نظامًا طبيعيًا. وإنما شرّع العتق ورغب فيه. ولم يجعله وسيلة قهر وإذلال. يقول (ول ديورانت) أن الدين الإسلامي بتعاليمه عمل على تضييق دائرة الاسترقاق وتحسين حال الأرقاء. فقصر الاسترقاق المشروع على مَن يؤسرون في الحرب من غير المسلمين. وعلى أبناء الأرقاء أنفسهم. أما المسلم فلا يجوز أن يُسترق(الترمانيني، ١٩٧٩). فكان المصدر الرئيس للرقيق في الإسلام الحروب التي خاضها المسلمون ضد الدولتين الفارسية والبيزنطية ورعاياهما. فالمسلمون في حروبهم ضد هاتين الدولتين حين انتصارهم على جيش أو فتحهم لبلد من البلدان عنوةً بعد مقاومة شديدة من أهله، عمدوا إلى استرقاق الأسرى باعتبارهم غنائم حرب واقتسموهم فيما بينهم. فالقرآن الكريم أجاز ضرب رقاب الكفار أو استرقاقهم أو مفاداتهم أو ألمَن عليهم بحريتهم(السامر، ١٩٧١).أما الرقيق السود فقد جلبهم تجار الرقيق المسلمون من ساحل أفريقيا الشرقي وهي زنجبار أو أرض الزنج كما أطلق العرب التسمية عليها. وتقع في المنطقة الواقعة قرب مدخل البحر الأحمر والحبشة، فضلًا عن مساحات أخرى في داخل قارة أفريقيا. وكان هذا الساحل خاضعًا للنفوذ العربي منذ عصور قديمة. وساد اعتقاد أن ليس وراء بلاد الزنج أي زرع أو ضرع. ولما كان لفظ الزنج يطلق أحيانًا على جميع العبيد السود في ذلك الزمان، فقد قيل أن بلادهم تمتد من الأجزاء الشرقية لأفريقيا حتى الحبشة تقريبًا. وبعبارة أخرى فإن بلاد العبيد التي عرفها العرب القدماء والتي تشمل جزءًا من الأراضي الممتدة على نهر النيل حيث عاشت شعوب وقبائل متنوعة. أسس العرب المسلمون عليها منذ عام (١٠٢هـ/٧٢٠م) مستعمرات إسلامية لاسيما ساحل أفريقيا الشرقية. فلما أهلَّ العصر العباسي ونشطت الحركة التجارية على طول السواحل الغربية للخليج العربي، قامت علاقات تجارية مع مدغشقر وأفريقيا الشرقية بصورة عامة، وتأسست نتيجة لهذه العلاقات مستوطنات عربية إسلامية جديدة على طول سواحل الصومال في لامووموباسا وزنجبار وموزمبيق. ووصل النفوذ الإسلامي في وقت متأخر إلى مونوموتابا وهي ما يسمى الآن بدولة زيمبابوي. وقد عرف العرب نتيجة لذلك زنوج البانتو وهم أكبر القبائل الزنجية في أفريقيا وأسموهم بالكفار. ومن بعدها نشأت تجارة الرقيق الإسلامية، التي هدفت إلى الحصول على أكبر عدد من زنوج البانتو لتجهيز القصور بالعبيد والخصيان، وتوفير الأيدي العاملة في الإقطاعيات الزراعية(السامر، ١٩٧١).

واستطاع تجار الرقيق في الدول الإسلامية من توسيع تجارتهم حتى شملت جميع مناطق أفريقيا التي استطاعوا الوصول والنفوذ إليها. ولم يكن هؤلاء التجار يقوموا بأنفسهم باصطياد الزنوج، بل كانوا يغرون رؤساء العشائر الزنجية بالبضائع والسلع فيقدمون لهم العبيد بالمقابل. أو كانوا يتدخلون في حل نزاع بين عشيرتين زنجيتين فينالون حصة من الأسرى. وكانت في مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقيا أكبر أسواق الرقيق السود في العصر العباسي. وكان بعض العمال وولاة الأمصار لاسيما في أفريقيا وتركستان ومصر يؤدون بعض خراجهم من الرقيق. وكان بعض أهل الكتاب يقدمون الرقيق من أولادهم على سبيل الجزية ويروي المسعودي بأن الفاتحين المسلمين صالحوا قبائل النوبة على رؤوس من الرقيق معلومة. وظلوا يستلمون سنويًا حتى القرن الرابع مئات العبيد(السامر، ١٩٧١).

أولًا: ثورة زنج البصرة (٢٥٥-٢٧٠هـ/٨٦٩-٨٨٣م)

لم يبق الرق في الإسلام في الحدود التي جاءت بها التشريعات الواردة في القرآن الكريم وسنّة نبيه محمد (صلى الله عليه وآله). فحين توقفت الفتوحات في العصر العباسي أصبح الرقيق المجلوب هو المصدر

الرئيسي. وأضحت تجارة الرقيق تدر على أصحابها أموالًا وفيرة وكان للعاملين فيها حظوة عند الخلفاء والوزراء والأثرياء(الترمانيني، ١٩٧٩). وكانت الأسرة الإسلامية ميسورة الحال تقتني الرقيق من البيض والسود باعتبارهم مظهرًا من مظاهر الرفاهية والثروة. وانتشر الرقيق الأبيض من الروم وغيرهم في قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء. حتى صارت بعض أمهات بعض الخلفاء (أمهات ولد) من غير العرق العربي. وإذا أردنا أن نبحث عن مكانة العبد في المجتمع الإسلامي ينبغي التفريق بين الأحكام الفقهية النظرية التي نظمت أحوال الرقيق، وبين واقعهم الحقيقي وأوضاعهم الاجتماعية الفعلية، ذلك أن السادة لم يكونوا مثاليين ولم تكن تعاليم الدين الإسلامي الواردة في القرآن الكريم وفي سنّة نبيه ولا الأحكام الفقهية تستطيع إلزامهم على معاملة عبيدهم بما هو واجب دينيًا من الرفق والتسامح.ويمكننا تقسيم العبيد في الثقافة الإسلامية إلى نوعين، الأول هم عبيد البيوت من الخصيان وكانوا أحسن حالًا وربما شاركوا أسيادهم في اهتماماتهم وتمتعوا ببعض من طيبات الحياة. والثاني هم أعداد العبيد الكبيرة الذين سخّروا للعمل في الإقطاعات الزراعية في العراق الأدنى. وكانت أوضاعهم الاجتماعية والمعاشية شديدة البؤس. وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد اشترطت أن يستعبد الأسرى في حالة حرب شرعية مع الكفار بعد إنذارهم. فإن التطور الاقتصادي الذي شهده العالم الإسلامي أيام الدولة العباسية من ناحية تغلّب المصالح المادية على الشعور الديني أديا إلى قيام نوع جديد من التجارة غير المشروعة ولا المقبولة وهي (النخاسة)، أو تجارة الرقيق التي انتشرت في أسواق الشرق الإسلامي لاسيما في مدينة بغداد(السامر، ١٩٧١).

ففي زمن الدولة العباسية اشتدت الحاجة إلى الأيدي العاملة لاستصلاح أرض السواد في العراق فزاد الطلب على الرقيق من بلاد الزنج مما زاد وضاعف من أعدادهم في العراق(الترمانيني، ١٩٧٩). وأحد الأسباب المهمة لهذا الطلب المتزايد لليد العاملة هو الإقطاع المسمى (إحياء الموات). إذ استند هذا النوع من أنظمة الإقطاع إلى حديث للنبي محمد (صلى الله عليه وآله) هو "مَن أحيا أرضًا مواتًا فهي له"، وقد اتخذ بعض المتنفذين من هذا الحديث مبررًا للاستيلاء على أراضي شاسعة لاسيما في جنوب العراق بعد أن قاموا بإحيائها. فبمجرد أن يحفروا فيها بئرًا أو يشقوا قناة لا يترتب عليهم من الالتزامات المادية سوى دفع العشر لبيت المال. ويخول هذا النوع من الإقطاع صاحبه أن يزرعه ويزارعه ويؤجره ويكري أنهاره وأن يورثه، ولا يتمكن أي إنسان من انتزاع ملكيته منه. وأفضل مثال على هذا النوع من الإقطاع تلك الأراضي المحيطة بمدينة البصرة التي تخربت نتيجة الإهمال والفيضانات المتكررة، فتصدى لاستصلاحها الأثرياء والملّاكون الأغنياء مستخدمين أعدادًا هائلة من الرقيق الأسود الذي جلبه النخاسون إلى العراق الأدنى(السامر، ١٩٧١).فضلًا عن أن الخلافة العباسية كانت تمر بأزمة مالية حادة آنذاك مما دفعها إلى اللجوء إلى إقطاع الأراضي للتجار والأثرياء لإحيائها واستغلالها. فالتجارة في القرن الثالث الهجري كانت مزدهرة وجنى التجار العرب أرباحًا كبيرة بحيث تكونت منهم طبقة اجتماعية ثرية بدأت بتوظيف الفائض من أموالها في الزراعة بوساطة امتلاك الأراضي الشاسعة أو استغلال أراضي الدولة بعد استصلاحها ودفع قسم من غلّتها للدولة العباسية كخراج(علبي، ٢٠٠٧).وهكذا بدأت ملامح الإنتاج القائم على العبودية تظهر على نحو خاص في منطقة البصرة وبطائحها[*] أي مستنقعاتها، من خلال نشوء المزارع الكبرى ذات الملكية الخاصة المستحصلة من إهمال وتفريط الخلافة العباسية ولدواعٍ شتى بالملكية العامة للأرض الجماعية العائدة للمسلمين.

وهذه الإقطاعيات من الأراضي شاسعة المساحة في نطاق مدينة البصرة أشبه بالمستعمرات رومانية الطابع. حيث تضم آلاف العبيد الزنج المسخرين لاستصلاح هذه الأراضي واستخراج الملح منها ثم زراعتها وفي ظروف عمل قاسية ومريرة(علبي، ٢٠٠٧). وكان العمل الرئيس الذي استخدم فيه الزنوج هو إزالة الطبقة الملحية-السباخ[*]-التي تغطي الأراضي وإظهار التربة الخصبة الصالحة للزراعة، ونقل السباخ وجعله في أكوام

(*) البطائح أو الأهوار: مساحات شاسعة من الأرض مغطاة بمياه ضحلة راكدة.

(*) السباخ: هي ترسبات الأملاح وغيرها من المواد التي تنتج عن جفاف المياه التي جلبتها الفيضانات وغطت وجه التربة.

وتلال للإفادة منه باستخراج الملح، وكانت هذه التلال من الترسبات الملحية معروفة في البصرة وأنهارها حيث كان يعمل فيها عشرات الألوف من الزنج الذين كانوا معرضين لرقابة صارمة وإهانات مستمرة. وكانوا يعملون في مجاميع بشرية كثيرة العدد تتراوح الواحدة منها ما بين ٥٠٠-٥٠٠٠ عبد وقد يزيد عن هذا العدد بكثير. فقد عمل على نهر دجيل الأهواز ما يقارب من ١٥ ألف زنجي. وكانت الأراضي التي سُخِّرَ الزنج للعمل فيها، والواقعة في القسم الأدنى لنهري دجلة والفرات ما يعرف بالبطائح (الأهوار) مغطاة بالقصب والبردي والحلفاء وبسبب ذلك كانت بؤرة للأوبئة والأمراض وكان سكانها والعاملين فيها معرضين لأسوأ أنواع الأمراض. يقول المقدسي "والبطائح نعوذ بالله منها ومن شاهدها في الصيف رأى العجب...وثم بق له حمة كالإبر"، ومما لا شك أن هذا البعوض كان من أهم العوامل في نشر الأمراض لاسيما الملاريا، ففي سنة (٢٥٨هـ/٨٧١م) أصاب جيش الزنج في هذه المستنقعات وباء فتك بهم من جراء خوضهم في المياه...وإذا علمنا بأن العبيد لم يعيشوا في بيوت تقيهم البرد والحر والحشرات والحيوانات الضارية. وأن غالبيتهم كانوا ينامون في العراء، وبعضهم في أكواخ طينية أو مصنوعة من نبات القصب والبردي. أدركنا أي ظروف سيئة كانوا يعيشون فيها(السامر، ١٩٧١).

يضاف إلى تلك الظروف السيئة و اللا إنسانية ما كان يقدم لهم من طعام الذي يتكون من (الدقيق والسويق والتمر)، وهو طعام ينفخ ويبطئ النزول من المعدة خدع به الإقطاعيون مِعَد الزنج الخاوية. فالسويق كما وصفه الجاحظ هو "من عدد المسافر وطعام العَجلان، وغذاء المبكر وبلغة المريض"، وهو مجلبة لخراب المعدة وبوار الأمعاء(علبي، ٢٠٠٧). يضاف إلى كل ما سبق من سوء التغذية والمِعَد الخاوية والجهد الجسماني المرهق والأجساد المعرضة للأمراض المهلكة وللظروف البيئية القاسية، كانت هناك ظروف نفسية شديدة الوطأة عليهم كعدم معرفتهم باللغة العربية، فالأنقياء من الزنج الذين جلبوا من صميم السواحل الشرقية لأفريقيا كانوا بعيدين عن الاحتكاك بالعرب في شمالي أفريقيا لذا كانوا يجهلون اللغة العربية بخلاف زنج النوبة والفراتية والقرماطيين، وكانوا يحيون مبعدين عن بلادهم وعائلاتهم وبيئاتهم منفيين نفيًا قهريًا وقسريًا فقد جلب الكثير منهم عن طريق الاصطياد ولم يشكلوا مجتمعًا خاصًا بهم وأحياءً سكنية تضمهم. ولم تكن لهم زوجات وأولاد وأُسر بل كانوا على هيئة الشطار عزابًا (علبي، ٢٠٠٧). وعلى الرغم من أن الزنج كانوا يعملون تحت ظروف قاسية من عمل شاق ورقابة صارمة ومعاملة جائرة وحرمان متواصل. فإن جزاءهم لم يكن معقولًا على الإطلاق سوى ما كان يوزع عليهم يوميًا من الغذاء الزهيد من الدقيق والتمر والسويق. وبالمقابل كانت ثروات أسيادهم تتراكم وتتضاعف. وقد روي عن زبيدة بن حميد أن ثروته كانت تقدر بمئة ألف دينار في القرن الثالث الهجري وأنه كان يضرب غلمانه الجياع. وعبّر رئيس الغلمان عن حالتهم بقوله "إننا نسمع بالشبع سماعًا من أفواه الناس".لقد كان سادة العبيد أذكياء في اختيار أرخص أنواع الطعام وأشدها إملاءً للمعدة في وقت واحد(السامر، ١٩٧١). وكانت النظرة إليهم من قبل أبناء المجتمع نظرة ازدراء واحتقار عبّر عنها الجاحظ بقوله "وقد علمنا أن الزنج أقصر الناس مدة ورؤية وأذهلهم عن معرفة العاقبة، فلو كان سخاؤهم إنما هو لكلال حدهم ونقص عقولهم وقلة معرفتهم. ومن أمثلة الأفكار الشعبية السائدة عن الزنج آنذاك "أن العبد إذا جاع نام وإذا شبع زنى". ويقول ابن بطلان "فالزنجي إذا شبع فصب العذاب عليه صبًا فإنه لا يتألم له"(السامر، ١٩٧١).وبكل ما مر سابقًا فضلًا عن الوضع السياسي التي كانت تمر به الخلافة العباسية من سيطرة الأجانب الأتراك على الخلفاء وعلى مقاليد الحكم في الدولة العباسية. وَجدَ صاحب الزنج(*) لنفسه ولأصحابه المبررات والأعذار والظروف المناسبة لإشعال فتيل

(*) صاحب الزنج (قُتل ٢٧٠هـ/٨٨٣م): ادعى الانتساب إلى الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ) فزعم أنه حسيني إذ يقول تارة بأنه علي بن محمد بن أحمد (المختفي) بن عيسى (مؤتم الأشبال) بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وتارة أخرى يقول إنه من ولد يحيى بن زيد بن علي. وعندما توجه إلى البحرين سنة (٢٤٩هـ/٨٦٣م) ذكر أنه عباسي النسب وأنه علي بن عبد الله بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب. إن عَلوية علي بن محمد حديث خرافة وادعائه هو من باب استغلال شعبية الشيعة والمتاجرة بمشاعرهم ورصيدهم الجماهيري. وادعى كذلك المهدية وكان ينقر على وتر حساس في نفوس المستضعفين الذين طالت مدة شقائهم وكانوا يأملون ظهور المهدي المنقذ الذي سيزيل عنهم الغمة ويفرج عن حياتهم كربتها. إن ادعاء النسب العلوي من جانب الثائرين طوال العصور الوسطى كان أمرًا معتادًا ومتكررًا، لأن الشيعة اشتهروا بنقمتهم على السلطة القائمة واعتبارهم إياها مغتصبة جائرة. كما أن الاستناد إلى النسب العلوي يضفي على حركة صاحب الزنج الشرعية التي لابد من توفرها لكي تنجح الثورة

الثورة سنة (٢٥٥هـ)[**]، في عهد الخليفة المهتدي بالله محمد بن الواثق ووضع لها أهدافًا مغرية فتحت شهية الزنج والعبيد المقهورين وجعلتهم ينساقون دونما أي تفكير عميق وراءها. تلك الأهداف التي وضعها صاحب الزنج بذكاء ودعا إليها كان أهمها وأقواها أثرًا في نفوس الزنج هو تحريرهم وعتقهم من العبودية والمهانة وتحسين مستواهم المعاشي وإصلاح أحوالهم وذلك بمساعدتهم على الحصول على الأموال بعد استحواذهم على الحرية، وأن يصبحوا أسيادًا لأسيادهم الذين سيصبحون عبيدًا لهم(محمد، ٢٠٠٩).

لقد اجتمعت العديد من الظروف والعوامل السياسية والاقتصادية والنفسية والاجتماعية منها ما يخص الزنج، ومنها ما يخص الدولة العباسية، هذه الظروف المترابطة بتأثيراتها دفعت الزنج إلى تلبية دعوة علي بن محمد والسير تحت لوائه، وهو الذي كان ذكيًا في استغلال هذه الظروف واختيار التوقيت.

لقد كان الدين الإسلامي في ذلك العصر يقوم مقام السياسية. وكان لابد لكل حركة مهما تكن دوافعها من أن تبحث في الدين لا عن قناع فقط. وإنما عن تعبير حيوي ضروري ومصطلحات اجتماعية وأهداف وأماني تدغدغ مشاعر المظلومين والمقهورين من الزنج وغيرهم، وتؤجج أحقادهم. وهذا ما فعله علي بن محمد. فالمصطلحات والمبادئ الدينية التي نادى بها في عصره تقابل المصطلحات الاجتماعية والسياسية في عصرنا. كمفاهيم الحرية والاستقلال والاشتراكية والمساواة والعدل وحق الأمم في تقرير مصيرها...وغيرها(علبي، ٢٠٠٧).

وكان أفضل برهان على سوء أحوال الزنج الاجتماعية، إقبالهم أول من دعاهم علي بن محمد إقبالًا منقطع النظير وقد امتلأوا بالسرور والحماس حين بذل لهم الوعود المغرية وأخبرهم بأنه لم يخرج لغرض من أغراض الدنيا "وما خرج إلا غضبًا لله، لمّا رأى عليه الناس من الفساد في الدين"(السامر، ١٩٧١).بدأت ثورة الزنج أو حركتهم التمردية بخروج علي بن محمد في فرات البصرة حيث كان يقيم في موضع يدعى قصر القرشي في برنخل، فكان أول ما فعله أنه قبض على خمسين عبدًا لرجل يدعى العطار كانوا في طريقهم إلى عملهم في كسح السباخ، ثم اتجه إلى موضع آخر فأخذ منه خمسمئة غلام، وهكذا طفق يتجول في المنطقة المجاورة طوال يومه يتصيد العبيد "حتى اجتمع إليه بشر كثير من غلمان الشورجيين"، وكان بينهم جماعة من وجهاء الزنج الذين أصبحوا فيما بعد قوادًا في جيش الثورة. وكان لابد لعلي بن محمد أن يعمل على كسب ثقة هؤلاء العبيد المذعورين فألقى فيهم خطبته الأولى التي وضّح لهم فيها برنامجه. ولما أصبح عدد أتباعه ضخمًا أخذ ينظمهم على شكل فرق ويضع عليهم قوادًا ورؤساء. وبرزت أمامه مشكلة خطيرة هي الحاجة للسلاح والأموال للصرف على شؤون الحرب والتموين. فلجأوا إلى الإغارة على القرى والمدن والمجاورة(السامر، ١٩٧١). كالبصرة و واسط والأهواز. واستطاعوا أن يحتلوا بين عامي (٢٥٥-٢٥٦هـ) مدنًا مهمة كالأبلة وعبادان وجبي. وفرضوا سلطانهم على مصب نهر دجلة واستولوا على مقاطعات زراعية شاسعة فأثر ذلك على بغداد نفسها. وبذل ملّاك العبيد والأراضي في بداية الثورة جهودًا عظيمة لإيقاف الثورة لأنها بالأساس كانت موجهة ضدهم، كما أنها أفقدتهم وسائل الإنتاج الرخيصة. فاستخدموا وسائل الإغراء مع علي بن محمد وعرضوا عليه الأموال الطائلة إذا أرجع إليهم غلمانهم. ولم تتدخل الدولة العباسية بادئ الأمر لقمع الثورة، بل تركت أهل البصرة أنفسهم يعالجون الموقف. وبعد أن يأس هؤلاء من صد الثورة وتيارها العنيف كتبوا إلى الخليفة في بغداد يطلبون منه التدخل. وعندها أرسل قائده (جعلان التركي) على رأس جيش نظامي(السامر، ١٩٧١). واستمرت الحرب بين الزنج والدولة العباسية مدة تزيد على أربعة عشر عامًا.

وتلقى التأييد الشعبي ومن العامة الذين اعتقدوا أن الإصلاح لن يكون إلّا على يد علوية. فقد كانت مسألة ادعاء النسب العلوي والمهدية قاسمًا مشتركًا لدى الكثير من المتمردين والثائرين في التاريخ الإسلامي خلال العصر الوسيط.

(**) بدأت ثورة الزنج ليلة السبت ٢٧ وقيل ٢٦ رمضان سنة ٢٥٥هـ/١٠ سبتمبر ٨٦٩م.

فبعد فشل الكثير من القادة الذين أرسلتهم الخلافة العباسية لصد هجمات الزنج وقمع ثورتهم والقضاء عليها، وجد الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٩هـ) أن من الضرورة تعيين قائد جديد وشجاع لقتال الزنج فوقع اختياره على أخيه أبي أحمد الموفق، فأرسل إليه وأحضره من مكة. وتمكن الموفق من تحقيق عدة انتصارات على جيش الزنج وتمكن من السيطرة على مدينة صاحب الزنج واسمها "المنيعة" ومدينته الأخرى واسمها "المنصورة" ومدينة "طهثا" واستولى على الأحواز وأجلى منها الزنج عنها وكان ذلك كله في عام (٢٦٧هـ). وبعد أن حقق الموفق هذه الانتصارات انسحب صاحب الزنج إلى مدينته بنهر أبي الخصيب فأمر الموفق ابنه أبا العباس المعتضد بالمسير إلى محاربة صاحب الزنج بنهر أبي الخصيب(الدليمي، ٢٠٢١). وأمر الموفق بالتضييق على صاحب الزنج واتباعه وتشديد الحصار عليهم، وقطع الميرة والمنافع عنهم، ووزع ورتب الموفق على جميع المسالك التي يأتي إلى الزنج منها التموين، القواد وأحكم الأمر في غاية الإحكام، فحاصرهم اقتصاديًا وعسكريًا لاسيما مدينة صاحب الزنج. فقطع كل منفذ تأتي معه الميرة بأنواعها إليهم من كل جهة(الدليمي، ٢٠٢١). وبعد أن أحكم الأمير الموفق حصاره الاقتصادي على المتمردين ولم يترك لهم منفذًا محتملًا حتى أحكم السيطرة عليه. بدأ حصاره يأتي بنتائج مبهرة. فقد بدأت وبصورة تدريجية الندرة في الطعام والميرة، وبدأ التذمر بين قادة الزنج وعامتهم(الدليمي، ٢٠٢١).

بعد ذلك أعدّ الموفق أسطوله ونظم مشاة جيشه وأكثر من الفرسان لفائدتهم في المواضع الوعرة والمسالك الضيقة ونشر جيشه على جبهة واسعة. ثم أمر الجميع بالزحف في وقت واحد نحو مركز صاحب الزنج. واحتشد الزنج للقاء الجيش ودارت بين المتحاربين معركة شرسة برهن فيها الزنج على شدة شكيمتهم ورغبتهم القوية في المقاومة. وسقط الكثير من الصرعى من الفريقين. وكان النصر في نهاية المعركة للجيش العباسي. وكان ميدان هذه المعركة نهر في أبي الخصيب يدعى اليوم "جيكور" واستولى العباسيون على مدينة الزنج، وأطلقوا من كان فيها من أسرى. ولاذ صاحب الزنج وقواده بموضع على نهر السفياني وهو من أنهار أبي الخصيب كان قد أعده صاحب الزنج لمثل هكذا يوم(السامر، ١٩٧١). واجتهد وأصر الموفق في طلب صاحب الزنج وتبعه جيشه فانتهى إلى آخر نهر أبي الخصيب. فجاءه البشير بقتل صاحب الزنج وأتاه أحد الغلمان ومعه رأس صاحب الزنج فعرضه على المستأمنين فعرفوه. وأمر الموفق برفع رأس صاحب الزنج على قناة فتأمله الناس فعرفوه. حدث ذلك يوم الاثنين ٢٧ محرم عام ٢٧٠هـ(الدليمي، ٢٠٢١).

ثانيًا: نتائج ثورة زنج البصرة

١- تعد ثورة الزنج بقيادة علي بن محمد من أخطر الثورات وأبرزها، التي شهدها العصر العباسي على الرغم من أنها لم تكن أولى الثورات والانتفاضات، فقد سبقتها العديد من الثورات والانتفاضات والتمردات لاسيما في جنوب العراق وتم قمعها والقضاء عليها. إلا أنها كانت أول ثورة تمخض عنها الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي ساد عصر الخلافة العباسية. ويبدو أنها كانت الشرارة التي أشعلت نار الأفكار الثورية الكامنة لدى المقهورين. فلم تلبث السنين اللاحقة أن شهدت تمردات وحركات ثورية أخرى مشابهة في الدافع والهدف(السامر، ١٩٧١). وكادت ثورة الزنج أن تسقط الخلافة العباسية، وساهمت بشكل كبير في إضعاف سطوتها ونفوذها.
٢- لفتت انتباه المجتمع الإسلامي إلى أوضاع العبيد الاجتماعية والاقتصادية والصحية، لاسيما شريحة العاملين في الإقطاعيات الزراعية واستصلاحها في جنوب العراق. ولكن؟! لم يحصل أي تغيير في سلوكيات التعامل مع هؤلاء العبيد من قبل أسيادهم ومُلّاكهم ولا النظرة إليهم من قبل أبناء المجتمع.
٣- استمرت الحرب بين الثوار من الزنج ومن انضم إليهم أكثر من أربعة عشر عامًا بلغت حدة العنف بين الطرفين المتحاربين حدًا لم يسبق له مثيل. حتى أن البعض من المؤرخين الذين تواضعوا بأرقام الضحايا من الطرفين قدّروها بنصف مليون إنسان(حسين، ١٩٤٥). فضلًا عن ذلك تضمنت ثورة الزنج خسارة

كبيرة لمُلّاك الأراضي والعبيد لأن قوام ربحهم كان يقوم على تسخير أعداد كبيرة من العبيد في استصلاح الأراضي وزراعتها بكلفة زهيدة جدًا لا تتعدى الغذاء المقدم إليهم. فعرّض الزراعة للتدهور والأراضي للخراب. وأثّر ذلك سلبيًا على اقتصاديات العراق الأدنى وعلى موارد بيت المال العباسي. وقطع الزنج طرق المواصلات مع بغداد مما ألحق بالتجارة أضرارًا بالغة، وبأملاك الخلافة العباسية التي طالتها أيدي الثوار(السامر، ١٩٧١). وأدت إلى نفاذ موارد المشرق نتيجة احتلال المدن وتخريب الأراضي وعرقلة المواصلات، وتقاعس الناس وتثاقلهم عن دفع الخراج(السامر، ١٩٧١).

٤- نشأت وظهرت مدينتين زاهرتين وسط ميدان القتال هما مدينة المختارة عاصمة صاحب الزنج، والموفقية مركز قوات أبي أحمد الموفق، وظهرت شخصيتان فذتان في تاريخ هذه المدة الزمنية هما علي بن محمد (صاحب الزنج) وأبي أحمد الموافق طلحة من بيت الخلافة العباسية(السامر، ١٩٧١).

المطلب الرابع

أشكال الرق والعبودية المعاصرة

تنشأ العبودية الحديثة نتيجة لمجموعة من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية، التي تخلق حالة الضعف التي يجد المستعبدون أنفسهم عالقون فيها(*). وعندما نتحدث اليوم عن الأشكال المعاصرة من العبودية نشير إلى ممارسات تقيّد حريات الأفراد ليس فقط من خلال إجبار الآلاف على العمل القسري، بل عن ممارسات تتضمن استغلالا للأشخاص ولظروفهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية منتشرة في أرجاء العالم وبدرجات متفاوتة. ولم تعد ترتبط بنقل ملايين الأفراد من قارة إلى أخرى، أو ترتبط بالضرورة بلون البشرة(*). وأصبح الاسترقاق في عصرنا الحالي فعلًا محظورًا ومُجرمًا. وكذا بعض الأفعال الشبيهة به كالسخرة وغيرها من الأفعال التي تهين الإنسان وتحط من كرامته، كاستغلاله مثلًا تحت وطأة التهديد بالعنف لتحقيق أغراض مادية. ولا زالت هذه الأفعال منتشرة في العديد من الدول ومجتمعاتها لاسيما بين الفئات المهمشة وفئة المهاجرين وفي المناطق الفقيرة. واستنكر الرأي العام العالمي ظاهرة الرق والاستعباد بأشكالها المعاصرة إلا أن الواقع يثبت عودة هذه الظاهرة بقوة وبأشكال مختلفة لم تكن معروفة من قبل، وهو ما اصطلح عليه بممارسات الرق المعاصرة، أو الممارسات الشبيهة بالرق، وهذه الأفعال وإن لم تتطابق مع المعنى الصريح والضيق للرق والعبودية إلا أنها تقوم على استغلال الإنسان بدنيًا وماديًا وتحرمه من حرية الاختيار والتنقل ومن تغيير وضعه الاقتصادي والاجتماعي نحو الأفضل(ديلبيانو، ٢٠١١).وقد حظر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الرق بقوله "لا يجوز استرقاق أحد أو استعباده ويحظر الرق والاتجار بالرقيق بجميع صورها"(سلام، ٢٠١٩). وتعني ممارسات الرق المعاصرة أو الشبيهة بها الاستغلال الاقتصادي لإنسان آخر على أساس علاقة التبعية الفعلية أو الإكراه الفعلي مع اقتران ذلك بحرمان خطير وشديد من الحقوق المدنية الأساس للإنسان(*). وبحسب الاتفاقية التكميلية لإبطال الرق فإن هذه الممارسات تعد جرائم تعاقب عليها قوانين الدول الأطراف في الأمم المتحدة(*).وتستخدم في كل دولة مصطلحات مختلفة لوصف أشكال الرق المعاصرة كالاتجار بالبشر والعمل

(*)المادة (٦) من الاتفاقية التكميلية لإبطال الرق وتجارة الرقيق والأعراف والممارسات الشبيهة بالرق، اعتمدت من قبل المجلسين الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة بتاريخ ١٩٥٦/٩/٣٠، دخلت حيز التنفيذ بتاريخ ١٩٥٧/٩/٣٠.

(*)تقرير منظمة حرروا العبيد free the slaves، الخطة الاستراتيجية ٢٠٢١-٢٠٢٣، ص ٥.

(*)المادة (١) من الاتفاقية الخاصة بالرق المعتمدة من قبل منظمة الأمم المتحدة، وقعت في جنيف بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٢٦، عدلت في نيويورك في ٧ ديسمبر ١٩٥٣.

(*)الفريق العامل المعني بالاتجار بالأشخاص، تحليل المفاهيم الأساسية الواردة في بروتوكول منع وقمع ومعاقبة الاتجار بالأشخاص لاسيما الأطفال والنساء المكمل لاتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة عبر الوطنية، فيينا، ٢٠١٠، ص ١٠.

القسري وإسار الدين والزواج بالإكراه وبيع الأطفال واستغلالهم وكل هذه الجرائم تشترك في معظم الخصائص(سلامة، ١٩٥٩). وتقدر تقارير المنظمات الدولية عدد البشر الذين وقعوا ضحايا الاستعباد في عام ٢٠١٦ بـ (٤٠,٣) مليون إنسان من رجال وأطفال ونساء. ومن المرجح ارتفاع هذا العدد في السنوات اللاحقة بسبب حدوث الأزمات(*). وترتبط معدلات العبودية الحديثة المرتفعة بالبلدان ذات الثروة الاقتصادية المنخفضة وضعف سيادة القانون وانتشار الفساد المالي والإداري وانتشار الصراعات الدموية. وتبرز عدد من القطاعات الاقتصادية التي تظهر فيها العبودية بشكل واضح كالزراعة التي تستقطب اليد العاملة لاسيما المهاجرة التي يتميز فيها العمل بطول الساعات. ووفقًا لتقديرات منظمة العمل الدولية فإن (١٢٪) من العاملين في قطاع الزراعة على المستوى العالمي. بما في ذلك مصائد الأسماك والحراجة يعانون من الاسترقاق. فضلًا عن ذلك العمل في قطاع إنتاج الملابس وتصنيع الألكترونيات وخدمات المطاعم والعمل في المنازل.وتقدر التقارير الأممية أن هناك ٣ ملايين إنسان هم ضحايا الاتجار بالبشر من بينهم الاتجار داخل بلدانهم لأغراض الدعارة والعمل القسري وبيع الأطفال والمتاجرة بالأعضاء البشرية والاسترقاق الجنسي وتهريب المهاجرين غير الشرعيين. يتم ذلك بسبب استغلال أوضاع الفقر العالمي وفي دول هؤلاء البشر(الياسري، ٢٠١٩). وعند النظر إلى التوزيع الجغرافي لظاهرة الرق والعبودية في العصر الحديث نجد أن منطقة القارة الأفريقية هي المكان الأبرز ظهورًا لممارسات الرق. فثمانية من كل ألف نسمة من سكان أفريقيا هم ضحايا للاستعباد، تليها قارة آسيا والمحيط الهادي ثم أوربا وآسيا الوسطى، ثم الدول العربية بنسبة تقدر بثلاثة من كل ألف نسمة. وأخيرًا الولايات المتحدة الأمريكية (سلامة، ١٩٥٩).

أولًا: ثورة الربيع العربي ٢٠١١

منذ نهاية عام ٢٠١٠ وبداية عام ٢٠١١ شهدت منطقة الشرق الأوسط لاسيما الدول العربية، حركات احتجاجية واسعة النطاق بدأت في تونس لتمتد بعد ذلك إلى أكثر من بلد عربي، فسقط نتيجة ذلك عدد من الأنظمة العربية الحاكمة وسميت هذه الحركات الاجتماعية السلمية بثورات الربيع العربي أو الصحوة العربية الجديدة(*)(العرداوي، ٢٠١٣). وتأثرت الحركات الاحتجاجية في بقية الدول العربية بالثورة التونسية التي اندلعت جراء إحراق الشاب (محمد ألبو عزيزي)(**) نفسه وأطاحت بحكم الرئيس التونسي زين العابدين بن علي(الزاملي، ٢٠١٣).

وبرزت منذ انطلاق شرارة ثورات الربيع العربي تحليلات تحاول تفسير عوامل وأسباب وصيرورات الاحتجاجات الشعبية التي اجتاحت المنطقة العربية، إذ شكّل اندلاع هذه الانتفاضات والثورات والاحتجاجات مفاجأة للمحللين والباحثين الغربيين وبعض المثقفين والمحللين العرب، بسبب هيمنة نموذج تنظيري عجز عن فهم ديناميات المجتمع العربي. هذا النموذج كان يرتكز على نظرية استمرارية الاستبداد وأن المجتمعات العربية "راكدة" وعصية وغير قادرة على التغيير بسبب ضعف وغياب إحساس شعوبها بالحاجة إلى الديمقراطية وما تتضمنه من مبادئ ومعايير وآليات خاصة بالتمثيل السياسي والرقابة المحاسبة، أي أنها عدت مجتمعات استثنائية دجنتها سلطة استبدادية بالتعسف على مدى عقود طوال من الزمن(نعمان، ٢٠١٢).فحتى لحظة اندلاع هذه الحركات الاحتجاجية كانت مجتمعات الشعوب العربية

(*)مؤشر الرّق العالمي ٢٠٢٣، . المؤلفون: مؤسسة ووك فريWalk Free، . الناشر: مؤسسة ميندير وMinderoo Foundation، ٢٠٢٣، ص١٧٢.

(*) الصحوة العربية كانت حركات التحرر العربية التي قامت في مطلع القرن العشرين.

(**) طارق الطيب محمد ألبو عزيزي (١٩٨٤-٢٠١١): شاب تونسي قام يوم الجمعة ١٧ ديسمبر-كانون الأول عام ٢٠١٠ بإضرام النار في نفسه أمام مقر ولاية سيدي بوزيد احتجاجًا على مصادرة السلطات البلدية في مدينة سيدي بوزيد لعربة كان يبيع عليها الخضار والفواكه لكسب رزقه، وللتنديد برفض سلطات المحافظة قبول شكوى أراد تقديمها في حق الشرطية فادية حمدي التي صفعته أمام الملأ وقالت بالفرنسية Dëgage وتعني ارحل. فأصبحت هذه الكلمة شعار الثورة للإطاحة بالرئيس وكذلك شعار الثورات العربية اللاحقة.

معتادة على القبول بمصيرها والاستسلام لجلاديها، ويشترك في ذلك مغرب المنطقة العربية ومشرقها(بنجلون، ٢٠١٢). فمعظم الدول العربية تمتلك سجلًا سيئًا في حقوق الإنسان، بسبب استبداد الحكام وتشبثهم بالسلطة لعقود طويلة من الزمن، فضلًا عن تسلمهم للحكم بطرق غير مشروعة كالانتفاضات الدموية.وأثار تقرير التنمية البشرية الخاص بالدول العربية الذي صدر عام ٢٠٠٥ ضجة واسعة النطاق، فقد كان أول تقرير عالمي يضعه مفكرون عرب أبرزوا فيه دون مجاملة فشل النموذج التنموي في غالبية الدول العربية بسبب الأنظمة الاستبدادية الحاكمة، وهيمنة الدول الكبرى سياسيًا واقتصاديًا(*).ففي ظل أنظمة الحكم الاستبدادية التسلطية العربية يحدث امتزاج بين أوجه القوة (السلطة والثروة) بما يتيح المجال المناسب لنشأة متلازمة الفساد والاستبداد. وتسعى أنظمة الاستبداد والفساد إلى إطالة أمد حكمها واستبدادها بالقوة ومغانمها الضخمة، بحرمان غالبية أفراد المجتمع من مصادر القوة هذه. بوساطة الإفقار والإقصاء من المشاركة السياسية بتقييد الحريات العامة وهي مصدر الظلم والقهر الاجتماعي الأساس من خلال أذرع البطش البوليسية. فضلًا عن إفقار الغالبية من أبناء المجتمع وتكريس التفاوت الشديد في الدخل والثروة وهي أحد أهم مصادر القوة. ويتوضح الفشل التنموي في بلدان الدول العربية في عدد من المشكلات الاجتماعية كتفشي البطالة وانتشار الفقر والتفاوت الحاد في توزيع الثورة والدخل. وفي العديد من الدول العربية التي يمتلك فيها القلة أصولًا استثمارية، تعني البطالة التحاق من لا يتمكنون من الحصول على دخل ثابت من عملهم بطبقة الفقراء(*). وهكذا يتزايد عدد الفقراء في البلدان العربية. وبمقياس خط الفقر المحدد بدولارين في اليوم تصل نسبة الفقراء (١٩٪) من سكان المنطقة العربية، أما بمقياس خط الفقر المحدد بـ (٢,٧٥) دولار في اليوم فترتفع نسبة الفقراء إلى (٤٠٪). وهذا الارتفاع الكبير في عدد الفقراء بمجرد تحريك خط الفقر قليلًا خاصية تنفرد بها البلدان العربية وتدل على أن نسبة كبيرة من سكانها تعيش بالكاد فوق خط الفقر وهي فئة هشة معرضة للانزلاق تحت هذا الخط عند أول ضائقة أو أزمة. وعند حساب الفقر على أساس خط الفقر الوطني الذي يحدد بمقياس الظروف المحلية في كل بلد وكلفة السلع الأساسية فيه تصل نسبة الفقراء في المنطقة العربية إلى ٢٢٪ من مجموع السكان. ونسبة شبه الفقراء أو المعرضين للفقر إلى ٢٠٪. وهي أرقام ونسب ما قبل الأزمات والحروب التي اندلعت في الأعوام الستة الأخيرة في المنطقة العربية(*).ويبدو أن القهر والحرمان الممزوج بالذل أضحى بمثابة الوقود الذي فجر وأشعل شرارة الثورات العربية، وزودها بالاستمرار والانتشار السريع والواسع والعابر للحدود. واعتمدت هذه الثورات بشكل أساسي على الحس العفوي كمصدر تنظيري للثورة. وعلى خفة الحركة لممارسة الثورة، واستلهمت نظرية وأسلوب وزخم الثورة من "الثقافة الشعبية العامة"(الشيوخ، ٢٠١٤).إن ما حدث في تونس ومن بعده في مصر هو احتجاج ذو طبيعة معنوية وأخلاقية في آن واحد. فهو رفض مطلق وصريح للاستبداد وللفساد ولسرقة ثروات البلاد وللمحسوبية والمحاباة. ورفض للإذلال واللا شرعية التي تشكل أساس الوصول إلى السلطة من قبل هؤلاء الزعماء. هي احتجاج في سبيل إقامة ولو القليل من الطهر الأخلاقي في مجتمع جرى استغلاله وإذلاله كثيرًا. وهي ليست ثورة إيديولوجية فليس لها قائد أو زعيم أو حزب يتزعمها. إنهم الملايين من الناس البسطاء المقهورين الذين خرجوا إلى الشوارع لأن الكيل طفح بهم(بنجلون، ٢٠١٢).لقد انطلقت ثورة الأحرار التونسية في يوم ١٨ ديسمبر ٢٠١٠ في مدينة سيدي بوزيد أول الأمر تضامنًا مع الشاب محمد ألبو عزيزي الذي أضرم النار في جسده في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ تعبيرًا عن غضبه على بطالته ومصادرة العربة التي كان يبيع عليها الفواكه والخضار. فخرج آلاف التونسيين الرافضين لشيوع البطالة واللا عدالة الاجتماعية وانتشار الفساد في مؤسسات السلطة

(*)تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٥، المكتب الإقليمي للدول العربية، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المطبعة الوطنية، عمان-الأردن، ٢٠٠٦.

(*)تحدي إقامة العدالة الاجتماعية في بلدان المد التحرري العربي، ٢٠١٨/٧/٧، www.limala.ps.

(*)الظلم في العالم العربي والطريق إلى العدل، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا-الأسكوا، الأمم المتحدة، بيروت، ٢٠١٦، ص ٥٨.

الحاكمة. ونتج عن هذه المظاهرات والاحتجاجات الثورية سقوط عدد من القتلى والجرحى من المتظاهرين نتيجة قمع الشرطة لهذه الاحتجاجات التي انطلقت في العديد من المدن التونسية(الشيوخ، ٢٠١٤). إن إضرام ألبو عزيزي النار في جسده والإقدام على الانتحار لم يكن فعلًا عبثيًا وإنما ليعبر عن حالة رفضه للظلم والقهر الواقع عليه وعلى الكثير من أقرانه في المجتمع. وأن هذا التجسيد المأساوي لحالة الرفض للظلم والقهر الواقع على هذا الإنسان. يأتي بما يدلل على نوع من القلق الوجودي الذي يشعر فيه الإنسان بأنه كائن سطحي بلا فائدة أو جدوى أو معنى(إيجلتون، ٢٠١٤).وانتقلت شرارة الاحتجاجات وثورة الشعب في تونس إلى مصر، فاندلعت ثورة الغضب الشعبية في مصر يوم الثلاثاء ٢٥ يناير/كانون الثاني ٢٠١١. وزاد من حدة مشاعر الغضب ظهور عدد من التسجيلات المصورة يظهر فيها عدد من رجال الأمن يقومون بانتهاك الحقوق المدنية والإنسانية لبعض المحتجين، وتعامل الأمن المركزي والشرطة بعنف وقاموا باستخدام الرصاص الحي وكانت البداية في محافظة السويس ومات أكثر من ٢٠ شابا مما جعل أهالي محافظة السويس يخرجون في مظاهرات حاشدة تحولت من احتجاج على قمع الشرطة إلى احتجاج على سوء الأحوال المعيشية والفقر والبطالة وسياسة توريث المناصب والفساد.وفي ليبيا اندلعت الاحتجاجات الثورية في ١٧ يناير/شباط ٢٠١١ وسميت بـ "يوم الغضب" فكانت على شكل انتفاضة شعبية شملت معظم المدن الليبية. وسبقت هذه الثورة احتجاج يوم ١٤ يناير بمدينة البيضاء على الأوضاع المعيشية واشتبك المتظاهرون مع الشرطة وهاجموا المكاتب الحكومية. وتأثرت هذه الثورة بموجة الاحتجاجات واسعة النطاق التي اندلعت في الدول العربية لاسيما في تونس ومصر وأطاحت بحكم الرئيس التونسي زين العابدين بن علي والرئيس المصري محمد حسني مبارك. وأطاحت هذه الثورة بحكم الرئيس العقيد معمر القذافي في هذه المرة في ليبيا.وفي اليمن انطلقت ثورة الشباب اليمني أو ثورة التغيير السلمية يوم ١١ فبراير/شباط ٢٠١١ وأطلق على هذا اليوم "جمعة الغضب". وقاد هذه الثورة الشبان اليمنيون فضلًا عن بعض أحزاب المعارضة، مطالبين بتغيير نظام الرئيس علي عبد الله صالح والقيام بإصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية. وأدت إلى خلع وعزل الرئيس علي عبد الله صالح وانتقلت شرارة ثورات الربيع العربي إلى سوريا والبحرين والجزائر والعراق وجيبوتي(الشيوخ، ٢٠١٤).

ثانيًا: نتائج ثورة الربيع العربي

١- لم تنجح بعض ثورات الربيع ولم تصل إلى أهدافها بسبب عدم وجود رؤية واضحة وخطة مدروسة وتنظيم محكم وتوجيه دائم. فالثورة التي لا تتضمن تلك العناصر تسير نحو الفوضى والتخبط ومصيرها الفشل، والمتابع لثورات الربيع العربي لاسيما في تونس لا يجد توفر تلك العناصر وأنها بدأت بصورة عفوية وفجائية ودون سابق تخطيط. وتمكنت بعض الثورات من الإطاحة بنظم استبدادية وإقامة نظم ديمقراطية قدمت للجماهير الثائرة حدودًا معقولة من المتطلبات التي خرجت هذه الجماهير من أجلها وهي إقامة نظم سياسية تحترم القانون والحريات العامة وتعمل بموجبها، فضلًا عن تحقيق العدالة والمساواة الاجتماعية(العرداوي، ٢٠١٣). ولم تنجح بعض هذه الثورات لأنها لم تضع المقدمات الصحيحة لبناء أطر دستورية متفق عليها من الجميع. ولم تؤسس لإصلاحات اقتصادية واجتماعية واضحة المعالم. ولم تسلم من التدخل الخارجي لبعض القوى الاقليمية والدولية(العرداوي، ٢٠١٣). وهشاشة وضعف أثر مؤسسات المجتمع المدني بمختلف أشكالها الاجتماعية والسياسية والنقابية الأمر الذي أحدث فراغًا كبيرًا في الساحة السياسية استطاعت المؤسسة العسكرية ملؤهُ كما حدث في تجربة مصر(الشيوخ، ٢٠١٤).

٢- خرجت الحركات الاحتجاجية من قاع المجتمعات العربية ولم تقم بها النخب مما يدل على مسك الشعوب العربية زمام المبادرة في الفعل الثوري، طبعًا هذا لا يعني عدم التحاق بعض من نخب القمة بهذا الفعل الثوري لاحقًا. وأسقطت هذه الحركات مقدسات وثوابت وقناعات السلطات الحاكمة المستبدة التي تجرم كل محاولة لانتقادها والخروج عليها(العرداوي، ٢٠١٣).

٣- أدت ثورات الربيع العربي إلى وصول عدد من الأحزاب والقوى والشخصيات الإسلامية المعتدلة وغير المعتدلة للسلطة. وذلك أعقاب الانتخابات التي جرت في عدد من بلدان الربيع العربي بعد تغيير الأنظمة السياسية الاستبدادية فيها. وكان هذا الوصول والهيمنة ذا أثر كبير في تنشيط إيديولوجية الإسلام السياسي في المنطقة العربية(الزاملي م.، ٢٠١٣). فعادت بعض هذه التيارات بكل أشكالها الفكرية وسيطرت على الحكم في البلدان التي سقط حكامها وحكوماتها. فمارست الحكم كسابقاتها ولكن هذه المرة بلبوس جديد ومغاير(العرداوي، ٢٠١٣).

٤- أثبتت الأحداث المتعلقة بثورات الربيع العربي إن الانتقال إلى النظم الديمقراطية ليس بالأمر اليسير وأن احتمالات عودة النظم الاستبدادية وانتشار الفوضى قائمة وبقوة على مسرح الأحداث وهو ما حدث بالفعل بسبب تداخل غير منضبط بين مستويات مختلفة من القوة والصراع بين عناصر النظم الحاكمة المخلوعة والجديدة، وعناصر وأفكار الثوار المدنية والدينية. وارتباك أداء السلطات الانتقالية مدنية أو عسكرية. مع إفرازات من مصاعب وأزمات اقتصادية وأمنية وسياسية، أدت بالمحصلة إلى تفتت المطالب الثورية وتشعبها بعد أن كانت محددة وواضحة مع بداية انطلاق الثورات. كما أدت إلى تمزيق النسيج الاجتماعي الوطني وتصاعد حدة الصراعات الداخلية الدموية في عدد من دول الربيع العربي ما بين المكونات الاجتماعية القومية والدينية والمناطقية(العرداوي، ٢٠١٣).

٥- تكبدت اقتصادات دول الربيع العربي خسائر مادية تقدر بـ (٥٠ مليار دولار) منها (٢٠ مليار دولار) خسارة في الناتج المحلي لدولة مصر وتونس وليبيا وسوريا واليمن والبحرين. فضلًا عن (٣٠ مليار دولار) خسارة عامة في اقتصادات هذه الدول(العرداوي، ٢٠١٣).

خاتمة

تحدث الثورة نتيجة وجود مقدمات وشروط محددة تبرز في إطار تطور المجتمع وتتحدد في التناقض بين الطابع الاجتماعي للإنتاج ونمط التملك الخاص. ويؤدي ذلك إلى اتساع الشعور بالظلم والاستغلال الذي يمارس من قبل فئة قليلة مالكة ومتسلطة. تؤدي هذه التناقضات إلى أزمة سياسية تحمل بين طياتها حالة ثورية تتجسد بنشاط الجماهير بشكل واسع من خلال التمرد بأشكال متعددة كالمظاهرات والاحتجاجات والاعتصام والعصيان. فالحالة الثورية هي تعبير عن التناقضات الموجودة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهي تمثل ذروة تفاقمها(*).ومع أن العقل هو أصل الثورة فإن الأسباب التي تهيؤها لا تؤثر في الجماعات إلا بعد أن تتحول إلى عواطف. لذا يجب إظهار وتحديد ما يجب هدمه وتغيير من أنظمة ومظالم لتحريك الشعوب و إفعام قلوبها بالأمل. وهو أمر لا يستحصل إلّا إذا أُستعين بعناصر الحياة المعاشة والتدين التي تدفع الإنسان إلى الثورة(لوبون،، ٢٠١٢).لقد اخترنا نماذج مختلفة الأزمان من ثورات الجياع والمقهورين والمظلومين، أقول نماذج لأن تاريخ الإنسانية مليء بمثل هكذا ثورات، هذا من جانب، ومن جانب آخر للتذكير بأن التاريخ يعيد نفسه وأحداثه تتكرر على اختلاف الزمان والمكان. فعلى السياسيين وولاة الأمر إعادة قراءة التاريخ حتى لا يقعوا بما وقع به مَن أهمله من السابقين واللاحقين والمعاصرين.

(*)إدارة البحوث والدراسات، قراءة نظرية-الثورات السياسية المفهوم والأبعاد، دراسات سياسية، المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٧ أبريل ٢٠١٦، ص ١.

المصادر والمراجع

إبراهيم نصحي. (د. ت). تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م. القاهرة: مطبعة الشروق.

أحمد بادفيش. (٢٠٢١). د. حجازي وحديثه عن القهر والهدر الاجتماعي.

أسد رستم. (١٩٩١). عصر أغسطس وخلفائه (٤٤ ق.م-٦٦ م) (المجلد ١). (منشورات الجامعة اللبنانية، المحرر) بيروت: مؤسسة هنداوي.

الشيخ عبد الله أحمد اليوسف. (٢٠١١). الظلم الاجتماعي في القرآن الكريم (المجلد ١). الرياض.

الطاهر بنجلون. (٢٠١٢). الشرارة ويليها بالنار (المجلد ١). (حسن عمر، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

أمين سلامة. (١٩٥٩). التاريخ الروماني. القاهرة: مطبعة بولاق.

باتريسيا ديلبيانو. (٢٠١١). العبودية في العصر الحديث (المجلد ١). (د. عزالدين عناية، المترجمون) أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة مشروع (كلمة)، أبو ظبي.

تيري إيجلتون. (٢٠١٤). معنى الحياة-مقدمة قصيرة جدًا (المجلد ١). (شيماء طه الزيدي، المترجمون) مؤسسة هنداوي للتعليم.

جايمس هنري براستد. (١٩٨٣). العصور القديمة (المجلد ١). (داوود قربان، المترجمون) بيروت: مطبعة دار العلم.

جون كلارك وفينسنت هاردنج. (١٩٨١). تجارة الرق والرقيق. القاهرة: مطبعة دار المعارف.

د.أحمد علبي. (٢٠٠٧). ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد (٢٥٥-٢٧٠هـ/٨٦٩-٨٨٣م). بيروت: دار الفارابي.

د.أمينة سلام. (٢٠١٩). ممارسات الرق المعاصرة في القانون الدولي، مجلة الاجتهاد القضائي. صفحة ١٠٥، ١٠٦.

د.حميد ياسر الياسري. (٢٠١٩). جدلية العلاقة بين الفقر والعبودية وبعض مؤشراتها الحديثة، دراسة في الجغرافية السياسية. صفحة ٥٤٥.

د.خالد عليوي العرداوي. (٢٠١٣). ورقة بحثية مقدمة للمشاركة في ندوة (تداعيات ما بعد الدكتاتورية في دول الربيع العربي). صفحة ١.

د.عبد المجيد حمدان. (٢٠١٢). العبيد عند الرومان خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد. (كلية الآداب، المحرر) دمشق: مجلة دراسات تاريخية.

د.فيصل السامر. (١٩٧١). ثورة الزنج. (دار إحياء التراث العربي ، بيروت، المحرر) بغداد: مكتبة المنار .

د.نافع حسين علي الدليمي. (٢٠٢١). إجراءات العباسيين وحصار صاحب الزنج في البصرة ونهايته ٢٥٥-٢٧٠هـ. (مجلة كلية التربية، المحرر) صفحة ١٤١.

دولي دونالد. (١٩٧٧). حضارة روما (المجلد ١). (جميل بواقيم الذهبي وفاروق فريد، المترجمون) القاهرة: مطبعة الشرق.

س.ي كفاليف. (١٩٨٦). تاريخ الرومان (المجلد ١). (أمين سلامة، المترجمون) بيرزن: مطبعة الثقافة.

سلمان بن نعمان. (٢٠١٢). فلسفة الثورات العربية، مقاربة تفسيرية لأنموذج انتفاضي جديد. بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات.

شوقي ضيف. (٢٠٠٤). المعجم الوسيط. القاهرة، مصر: مكتبة الشروق الدولية.

عبد السلام الترمانيني. (١٩٧٩). الرق، ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة ٢٣. الكويت.

عبدالمجيد حمدان. (٢٠١٢). العبيد عند الرومان خلال القرنين الثاني والأول الميلادي. (مجلة دراسات تاريخية، المحرر) دمشق، سوريا: جامعة دمشق.

غوستاف لوبون،. (٢٠١٢). روح الثورات والثورة الفرنسية. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

فاطمة سعيد خليفة محمد. (٢٠٠٩). حركة الزنج وآثارها السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الدولة العباسية (٢٥٥هـ/٨٧٠م-٢٧٠هـ/٨٨٣م). (رسالة ماجستير منشورة، المحرر) السودان: كلية الدراسات العليا - كلية الآداب - جامعة أم درمان الإسلامية.

فاطمة قدوري الشامي. (٢٠٠٩). الرق والرقيق في العصور القديمة والجاهلية وصدر الإسلام (المجلد ١). بيروت: مطبعة دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.

ماجد أحمد الزاملي. (٢٠١٣). ثورات الربيع العربي الأسباب والنتائج (المجلد ١).

ماجد أحمد الزاملي. (٢٠١٣). ثورات الربيع العربي-الأسباب والنتائج. الحوار المتمدن.

ماجد أحمد الزاملي. (٢٠١٣). ثورات الربيع العربي-الأسباب والنتائج، الحوار المتمدن.

مجموعة باحثين. (٢٠٢٣). نقد الحضارة الغربية (الرومان بين القرنين الأول ق.م والخامس الميلادي) محور التاريخ. النجف، العراق: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة.

محمد الجبوري. (٢٠١٨). السنن في الهدنة (المجلد ٢). بغداد، العراق: دار الحكمة.

محمد السويدي. (٢٠١٦). قراءات نظرية (الثورات السياسية - المفهوم الأبعاد). القاهرة، مصر: المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية.

محمد السيد عبد الغني. (٢٠٠٥). التاريخ السياسي للجمهورية الرومانية (المجلد ١). الاسكندرية، مصر.

محمد الشيوخ. (٢٠١٤). سفه ثورات الربيع العربي وأهدافها . ميدل إيست أون لاين.

محمد صديق. (٢٠٢١). في معاني القهر الاجتماعي.

محمود محمد الحوبري. (١٩٨١). رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية. القاهرة: دار المعارف.

مصطفى حجازي. (٢٠٠٥). التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور (المجلد ٩). الرياض، المغرب: المركز الثقافي العربي ، المغرب.

ممدوح درويش مصطفى. (٢٠٠٤). التاريخ الروماني. الرياض: مطبعة سند.

موريس لانجيله. (١٩٩٤). العبودية. دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع.

نصر الدين حسين. (١٩٤٥). حركة الزنج وأثرها على الخلافة العباسية (٢٥٥هـ-٨٦٩م/٢٧٠هـ-٨٨٤م). تأليف جامعة ٨ ماي (المحرر). الجزائر: كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية - قسم التاريخ والآثار.

هربرت ماركيوز. (١٩٧٠). العقل والثورة-هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

وس.كوفاليف، و ف.دياكوف. (١٩٥٩). الحضارات القديمة، (المجلد ١). دمشق: مطبعة الشرق.